مضامين الهوية وتجليات الأنا والآخر في خطاب الرحلة الجزائرية المعاصرة

دراسة تطبيقية على رحلات أحمد منور إلى أوربا

د.سميرة أنساعد
المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة (الجزائر)

Résumé

Cette étude cherche à extrapoler les implications de l'identité dans la littérature de Voyage en Algérie contemporaine, qui a diversifié d'appartenir à des concepts de nation et de l'ego national et l'autre arabe et musulman et européen, et Fera une lecture modeste des voyages de : Mohamed al-Mansouri Alghasiri, et Othman Saadi, Mohamed Ali Daboz, et Baaziz Omar et Mohammed Saleh Ramadan, au cours de cette lecture, en essayant de suivre l'évolution technique des discours de l'identité, et ses variations d'un voyageur à un autre, et puis eclairez l'image de soi, et l'image de l'autre chez l'écrivain algérien Ahmed Manour.

Mots-clés: discours - Littérature - voyage - identité - ego - l'autre - Algérie - Orient – Europe.

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى استقراء مضامين الهوية في أدب الرحلة المعاصر بالجزائر، التي تشعبت وتنوعت لتخص مفاهيم الوطن والوطنية، الأنا والآخر العربي والمسلم والأوربي، وستعتمد قراءتنا المتواضعة على رحلات كل من محمد المنصوري الغسيري، وعثمان سعدي، ومحمد علي دبوز، وباعزيز عمر، ومحمد الصالح رمضان، محاولين خلال هذه القراءة تتبع التطور الفني لخطابات الهوية، وتبايناتها من رحالة إلى آخر، ومن ثم تسليط الضوء على صورة الذات وصورة الآخر في رحلات الكاتب الجزائري أحمد منور.

كلمات مفتاحية: الخطاب– أدب– رحلة– الهوية– الأنا – الآخر– الجزائر– المشرق– أوربا.

مقدمة:

تزخر نصوص الرّحلة الجزائرية المعاصرة[1]، بالعديد من الملاحظات والانطباعات حول البلدان المرتحل إليها، ومنها وصف طبيعة حياة الشعوب من جوانب مختلفة: دينية، وسياسية، واجتماعية، ... وغيرها من الجوانب، التي تشكل مجتمعة صورا عن "الآخر"، وتمثيلات للصراع الحضاري والاستعماري، أو للاختلاف القيمي والأخلاقي والديني، وتتكئ كل تلك التسجيلات على الافتراض الذهني في البداية، ثم المشاهدة والتحقق بعد ذلك، وتتأثر بطبيعة الرحال في نظرته إلى الموجودات والظواهر، وبثقافته ومرجعياته الفكرية، والدينية، وتهيمن في هذه النصوص خاصة مضامين تدخل في نطاق ما يعرف بالهوية، التي تتكون من اللغة، والمعتقد الديني، والانتماء للوطن وللعرق أو السلالة.

وبعيدا عن التعريفات الدقيقة للهوية ولعناصرها، نود التركيز على أهم خصائصها وهي أنها إنسانية وجماعية، تتشكل وتتعمق عبر التاريخ من طرائق التفكير، والأحاسيس الفردية، ورغبات الجماعة وآمالهم، وطبيعة علاقاتهم، وهي تتماثل في خصائصها مع اللغة أهم مكون للهوية، والذي يقرأ نصوص الرحلة الجزائرية المعاصرة، يجد أن المبدعين الرحالين لم تغب عن أذهانهم هذه المعطيات، ولهذا تعرض جل الرحالين إلى قضايا الهوية في أعمالهم السردية، وإلى تمثيل الأنا والآخر، ونريد في هذا المحل التركيز على جملة من الرحلات التي نشرت إما في مجلات أو طبعت مستقلة في كتب جرى تأليفها أو نشرها ابتداء من النصف الثاني من القرن العشرين.

وتتلخص هذه الرحلات فيما ألفه محمد المنصوري الغسيري[2] وباعزيز بن عمر[3] عن رحلتيهما إلى المشرق العربي، وعثمان سعدي[4] ومحمد علي دبوز[5] عن رحلتيهما إلى مصر، ومحمد الصالح رمضان الذي سافر إلى فرصوفيا[6]، وأحمد منور الذي سافر إلى ليبيا وأوربا.[7]

ويمكن ضم ما قدّمه الرحالون من صور، وآراء حول الهوية فيما يعرف بموقف الكاتب، أو إيديولوجيته، التي تأخذ موقعا وسطا بين الذاتية، والموضوعية، وتنطلق من تصورات وهمية، وأفكار ذاتية، لتنحو نحو حقائق على الرغم من نسبيتها، تظهر في ملمح موضوعي، يجعلها تقترب من رؤية العالم، التي تتخذ من الوصف أداتها الفكرية، والمعرفة هدفها المنشود[8]، وبغض النظر عن صحة إيديولوجية الرحال أو عدمها، فإن الواضح منها أنها ترد في شكل رسائل توعوية، ونهضوية، ترتبط في أغلب الأحوال برغبة الكاتب الرحال في التغيير من حال وطنه ومواطنيه، والنهوض بهم إلى مستويات أرقى، وهذا غالبا ما يكون عند مشاهدة الرحال ما في الآخر من مزايا ومظاهر حضارية يفتقر إليها شعبه، غير أن هذا لا يعني عدم تنبه الرحال إلى عيوب الآخر، بل يجري عرضها في حالات قليلة تقترن بالدهشة، والمفاجآة، والاستغراب، وربما كان ذلك الانتقاد لإحساس الرحال بانتمائه إلى هذا الآخر في الدين أو اللغة أو المصير، وإرادته في التغيير منه، ومثاله انتقاد الرحالين الموجه إلى شعوب عربية أو إسلامية.

1. الجزائريون والوطن:

قدّم أول الرحالين المعنيين بالدراسة –وهو محمد المنصوري الغسيري[9]– في رحلته تحليلا لظواهر اجتماعية راهنة سلبية، وإيجابية، وقد بدا في كامل الرحلة مشجعا لسياسة الإصلاح، التي كانت جمعية العلماء المسلمين تسعى إلى إنجاحها على شتى المستويات: الديني، والاجتماعي، والسياسي، كما أظهر سخطه على ظروف الاحتلال، والقهر المسلط على شعبه، ورفضه للمحتل الفرنسي، الذي لا تتوافق شعاراته مع ما يطبّقه من أساليب قمعية للحريات، والأفكار، والمعتقدات.

اغتنم الغسيري أكثر من فرصة ليوجه في خطاب رحلته أحكاما عن الشعب الجزائري، وعما يحدث في الوطن ومن ذلك تحليله لحياة الطفل الجزائري السيئة في القرى والمداشر الجبلية، وهي حالة تدعو للعطف، والحيرة للطفولة الضائعة في أرضها، والجائعة رغم خيرات بلادها التي لا تحصى، والمحرومة من نور العلم، والثقافة، والمشهد يزداد

تعبيرا عن الفقر، والضياع، كلما غاص المتأمل في جبال الجزائر الممتدة نحو الصحراء، ويجري استحضاره لمعاناة الطفل الجزائري في فترة وجوده بلبنان، إذ قال: "**يجمل بك أن تقارن بين سكان الجبال عندنا وعندهم، ولا تجابهك إلا نتيجة واحدة: إن الطفل في جبل لبنان يغادي المدرسة ولا يكاد يوجد واحد في الجبل لا يظفر بالبقعة في المدرسة، وهو نظيف الثياب صحيح البدن، أضف إلى ذلك ما حباه الله به من هذا الجمال الخلقي الرائع، أما الطفل في جبل الأطلس التلي عندنا في الجزائر فليس يعوزه الجمال ولا الرواء، ولكنه يعوزه الكساء والغذاء ولا تحتضنه المدرسة إلا قليلا، وإذا انتقلت إلى سكان جبال الأطلس الصحراوي فهناك المأساة الكبرى فلا تعليم ولا دواء ولا حسن غذاء، ولا عناية بالإنسان، وإنك لترى هناك صورا للبشرية الأولى في عهد إنسان الغاب بادية في المسكن والملبس والمعاش وشتان ما بين سكان جبال وجبال! أعزك الله يا جبل لبنان، ولك الله أيها الأطلس المظلوم! الأطلس النائم ببنيه وذويه..**" (الرحلة، ع. 276)

والموقف مختلف مع الرحالة محمد الصالح رمضان[10]؛ فقد كان شديد الاستغراب لما يحدث في بولونيا بخصوص تنشئة الأطفال بكفالة من الدولة منذ ولادتهم بعيدين عن آبائهم وأمهاتهم، يعيشون في دور حضانة ثم في مدارس داخلية إلى أن يكبروا ويبدؤوا العمل، وإن كان هذا النظام بديعا كما وجده الرحال: "**يريح الوالدين من أتعاب تنشئة الأطفال وتكاليفهم وخصوصا الأمهات العاملات** [لكن].. **هذه المؤسسات مثل معامل التفريخ تماما تنشئ الأجيال إنشاء آليا بعيدا عن أمهاتها وآبائهم لتتعلق هذه الأجيال بحكوماتها ومنظماتها .. وهي لعبة خطيرة وإن بدت رائعة جميلة.**" (الرحلة، ص. 148)

ويأتي باعزيز بن عمر[11] ليعبّر عن استحسانه تعليم الأطفال في المدرسة الحديثة بلبنان، التي بدأت تعتني بتوحيد الزي ونمط الحياة، محتذية في ذلك بالتربية الغربية التي تعد الطفل إعدادا اجتماعيا قويا، وراقيا كما أخبر.(الرحلة، ص. 53)

وإن كان الغسيري رحيما على الطفل الجزائري لضعفه وتضييع الكبار له، فإنه كان قاسيا وغاضبا مستاءً من الشباب الجزائري، وكان ذلك عند وقوفه مناجيا النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد النبوي بالمدينة المنورة، هي المناجاة التي تلخص فكر وإيديولوجية الرحال قال: من حال التدين الواهي للجزائريين، بفعل السياسة الاستعمارية الجائرة، ومن الشباب في بلاده، المستهتر، والمضيع لدينه، ووطنه، والمقبل على الحضارة الغربية، في غفلة، وجهالة، فقال: "**إنا جئناك –يا شفيع المذنبين– من الجزائر وما أكثر المذنبين في الجزائر، إن في الجزائر عشرة ملايين من المسلمين لو كانوا يصلون جميعا لما كفتهم ألوف المساجد، ولو كانوا جميعا يدرسون الدين لما كفتهم مئات الكليات والمدارس، إنهم لا يملكون إلى الآن ولو كلية واحدة؛ لتخريج الوعاظ والمرشدين، والأئمة والمدرسين والدينيين، وإنما يتخرجون فقط حسب المصادفات– وإنما يتوظف منهم في البقية الباقية من المساجد مَنْ بينه وبين الموت شبر لا ذراع، وهو الواقع المر في الجزائر– ولست أدري كيف تنهض الأديان إذا عجز رجال الأديان، وخانتهم قوة الأبدان.. في الجزائر شباب ما تعلم درسا واحدا في الدين، لأن التعليم لا ديني في المدارس الدولية.. وأدهى من ذلك إن الشباب في الجزائر سرق له عقله، فدان بمذهب التشكيك في نفسه وفي مقوماته من تاريخ ولغة وأدب ودين فأصبح تلميذ الديكارت وداروين تحت شمس الفكر وحرية الرأي... إن شبابك في الجزائر لم يقدم لك من الأعمال عُشرَ ما قدمه شباب أي نبي آخر لنبيه في الجزائر.. إن كثيرا من أتباعك يستهويهم الميسر يقضون فيه فراغهم ولا يغريهم المسجد.**" (الرحلة، البصائر، ع. 271)

وينتقد محمد علي دبوز[12] بشدة في رحلته حياة الكسل، والخذلان، والاقتناع بالقليل، والإعراض عن البحث، والدراسة، والتأليف لدى الشباب الجزائري، كما عرّض في رحلته ببعض المفاهيم الهدّامة، والمضمرة للعداء لدين الله، وللعربية، وقد كان الهدف من تأليف الرحلة، والتعريف بشخصية الرافعي، بالدرجة الأولى تنوير شباب وطنه،

ونصحهم، والكشف لهم عن مثال الإرادة في النهوض بالذات، والتفاني في خدمة العلم، الذي انعكس في شخصية الرافعي، تظهر هذه الأهداف من ذلك قوله في معرض تعليقه على كتاب (على السفود) في النقد للرافعي: "**أتمنى أن يعاد طبع السفود لأنه أسلوب في النقد تحتاج إليه الأمة أحيانا كما تحتاج إلى الأحجار التي تلقمها أفواها لا تعي الكلام، وما أحوجنا نحن في المغرب إلى سفافيد وسفافيد نسلك فيها الخونة من أعداء الدين والوطن فإن بعض البقاع النجسة لا تطهرها إلا النيران ! إن كتاب السفود الذي طبع منذ عشرين سنة يجب على كل أديب قراءته ليتعلم منه أسلوبا كالرماية التي يجب على الإنسان أن يحدّقها للمكاره إذ ألمت به.**" (الرحلة، البصائر، ع. 337)

وفسر دبوز الجوانب المضيئة من شخصية الرافعي، وعلّل تميّز إنتاجه وخصوبته، في مجالات الإصلاح، والأدب، والنقد، كي يكون قدوة لشباب الجزائر المثقف، والجزائر في فترة استعمارية حالكة، ملؤها الظلم، والجهل، والتغريب، فقال: "**ليت شبابنا يعرف "أن الفن عَرَق ودموع" بالجهاد المستمر وتجرع المرائر بالحرمان فيسلك طريق الرافعي في الكد وإعطاء النفس كلها للعلم والأدب فلا يقنع في العمل فيكتفي بحفر النمل في استنباط العيون الفوارة التي تعانق النجوم، إن ما يغير النكد الذي تعيشه الجزائر إلى سعادة وعز هو ما يغير النفوس فتتطهر من أنانيتها وأوشابها، ولا يقوى على هذا إلا الأقلام والألسنة البليغة الصادقة فيجب أن تعمل مدارسنا في إنشائها في أبنائها فهي للجزائر أكبر.**" (الرحلة، البصائر، ع. 347)

ويأتي الرحّال عثمان سعدي[13] ليخاطب قراء البصائر وقراء رحلته إلى مصر والمعنونة "وطني" بخطابات شديدة التكثيف والرمز، وذات بعدين سياسي وتاريخي واضحين، وقد وقع التبئير للوطن والمحتل الفرنسي، إذ كان متأسفا لحال وطنه وشعبه ناقما على المحتل، وما زاد من حزنه بقاء الجزائر مجهولة في الخارج قضيتها مغمورة الصيت، وهو ما عبّر عنه سعدي بحزن وتفاؤل في الوقت ذاته بقوله: "**فارقتك يا (وطني العزيز) إلى أوطان أخرى، فوجدتك مجهولا حتى عند الخواص اسمك لغز يحتاج لحل، وتعريفك علم مفتقر لتبعية، فأنت مجهول في اسمك، مقبور في الظلم المسلط عليك، لكن صبرا يا وطني صبرا، فالفجر بازغ لا محالة بشرى يا وطني بشرى، فكأنني أرى فجرك مشرقا ونهارك طالعا..**" (الرحلة، البصائر، ع. 251)

ويعرب الرّحال محمد صالح رمضان عن المأساة ذاتها، وهي كون الجزائر مجهولة في اسمها وفي قضيتها، وهو الذي سنحت له الفرصة بزيارة بولونيا للمشاركة في المهرجان العالمي للشباب والطلاب، الذي أقيم شهر أوت من سنة 1955 بفرصوفيا، وفي هذه الرحلة الأوربية التقي رفقة أعضاء وفده بوفود طلابية من جميع أنحاء العالم، غير أنه أحسّ بالسوء بعد لقاء الإخوة العرب الذي كان أخويا لا يميّزه شيء: "**سوى –كما قال– ما بدا من بعض الأفراد منهم، من جهل مطبق لا يكاد يقبل من أبعد الناس عنا من الأصدقاء فضلا عن الأشقاء: جهل بحقائق نراها بديهية عند الخاص والعام في وقت قرّبت فيه وسائل الإعلام المتطورة كل شيء وأصبح العالم بفضلها كأنه وطن واحد.. فقد وجدنا فيهم من لا يعرف موقع الجزائر في العالم !! .. فمنهم من يحسب الجزائر أرخبيلا من عدة جزر، فإذا سألته في أي بحر؟ قال: في البحر الأبيض المتوسط ربما !! ومطط شفتيه !! كمن لا يهمّه هذا الأمر!!.. ومنهم من يظنها من مجاهل إفريقيا البيضاء أو السوداء !! ومنهم –وهذا ألعنهم لأنه مثقف– من يعدّنا فرنسيين تركنا ديننا ولغتنا من زمان عن حسن نية وطواعية، كما فعلت تركيا الكمالية بالإسلام والعربية !!.. ولكن ثورتنا ستعرب عن نفسها وتعرّف القاصي والداني بالشعب الجزائري، وستفرض على العالم وعلى مثل هؤلاء احترامها عندما يسمعون صداها ويعرفون مداها، فهي تعني جملة ما تعني حرية الأرض وحماية العرض.**" (الرحلة ص. 132)، ويمكن ملاحظة التقاء الرحاليْن في إحساسي الأسف على حاضر الجزائر، والتفاؤل بمستقبلها.

ويشير محمد علي دبوز في حديثه مع ابن الرافعي إلى مسألة موقع الوطن من العلم والثقافة، واهتمام أهله بالعلماء العرب الكبار، وقضيه محافظة الجزائر على دينها، وعربيتها، وقوميتها، رغم وقوعها تحت سيطرة الاحتلال،

وهي إشارة إلى جهل المشارقة آنذاك بالحركة الثقافية في الجزائر، ومحاولته تصحيح نظرتهم إليها بأنها منعزلة عن العالم العربي، وبأن شعبها لا يقرأ العربية، ولا يلقي بالا لكتابها، ولعل السبب في ذلك الحصار، والرقابة المفروضان على وسائل الاتصال بين المشارقة وإخوانهم المغاربة من قبل المحتل الفرنسي، قال محمد علي دبوز: "**وقد أطْلعت الدكتور على ما لم يعلمه من شخصية الجزائر والمغرب، وأعلمته بتشبث الجزائر بشخصيته العربية الإسلامية وتمسكه بالتقاليد الدينية.. وأخبرته بمكانة أبيه في الجزائر، وبجلاله في النفوس..**" (الرحلة، البصائر، ع. 347)

واسترجع سعدي فترة تألق الجزائر في البحر الأبيض المتوسط، مفتخرا بها، مقارنا بين حاضرها وماضيها فقال: "**وقفت لأقارن بين عهدين، عهد مضى وانصرم بسعادته وعزه، وعهد لا زال جاثما على صدرك –أيها الوطن العزيز– بأثقاله ومصائبه، وما إن تمعنت في امتداد شاطئك حتى انسللت مني المخيلة إلى عصر كانت تخرج منه سفنك لتحطم أساطيل الدول العظمى التي نفخ أشداقها الغرور.. لكن سرعان ما يخونني الواقع فيرجع بي إلى الحاضر فأرى البواخر خارجة من ثغرك محملة بخيراتك..**"(الرحلة، البصائر، ع. 251)

وإذا كان ميناء الجزائر قد أوحى لعثمان سعدي بذكريات الماضي المجيد والحاضر المؤلم، فقد أثار ميناء تولون العسكري، وميناء مرسيليا المدني لدى محمد الصالح رمضان ذكرى احتلال فرنسا للجزائر الأليمة أولا، ليسترجع بعد ذلك ماضيها المشرف، فقال: "**من هذين الميناءين: المدني والعسكري توالت علينا قوافل الاستعمار والاستغلال والإذلال، كالجراد تستولي وتلتهم كل شيء بلا هوادة ولا رحمة، وقد تكبدنا منها المصاعب والمصائب والويلات طيلة قرن وثلث قرن، ذقنا فيها المذلة والهوان والاحتقار، وعرفنا فيها الجهل والفقر والحرمان، بعد العزة والسيادة والسلطان.**" (الرحلة، ص. 54)

وانتقد عثمان سعدي سياسة المستعمر الفرنسي في الجزائر، فكانت رحلته بأكملها إدانة له، وتنكرا لوجود الفرنسيين، والمعمرين الغزاة على أرض بلاده، يعيشون على خيراتها، ويبقى الجزائري فريسة للجوع والحرمان، فالفرنسيون لم يجلبوا للوطن سوى الدمار، والمصائب، والإفلاس، وهم أناس: "**لا ذمة عندهم ولا كرامة لديهم، ينتسبون للإنسانية والإنسانية منهم بريئة وعن أعمالهم بعيدة يزعمون أنهم أطباء جاءوا ليداووا مرضك في حال أنهم يقررون بأعمالهم الوحشية، أنهم مِكروب طار من أوربا ليحل بدم الإنسانية فيمتص دمها، وينحل جسم أفرادها، ويقتل بريئها، ويفسد طباعها، ويحجر قلوبها.**" (الرحلة، البصائر، ع. 151)

أما محمد الصالح رمضان فلم تجعله رحلته الأوربية ينسى وطنه، أو ينبهر بالغرب، وإنما ظل يذكّر في كل مرحلة بحال الجزائر المحتلة والسيئة، وبأفعال فرنسا فيها، فها هو في مرحلة الإبحار الأولى نحو فرنسا يستغرب لعدم امتناع فرنسا في ضم الجزائر إليها بسبب المسافة الموجودة بين البلدين، وهي الأكبر مقارنة بالمسافات الموجودة بين الجزائر والدول الأوربية الساحلية الأخرى كإسبانيا وإيطاليا، وقد عبّر بنبرة استغراب واستنكار واستخفاف في قوله: "**رغم البحر الأجاج الذي يفصل الوطنين والقارتين فولايات الجزائر ولايات فرنسية، وشعبها شعب فرنسي وإسلامها إسلام فرنسي، وكل ما فيها فرنسي: سماؤها، هواؤها، ماؤها وكل شيء فيها بلا استثناء، ثم إن كل هذا فرنسي من نوع خاص وبفهم خاص لا يعقله إلا الفرنسيون**" (الرحلة، ص. 52)، ولذلك نعّت محمد الصالح رمضان فرنسا بالجشع والاستهتار، الذي بلغ بها إلى ضم الصحراء الجزائرية الشاسعة إليها فسمتها الصحراء الكبرى الفرنسية، ولولا منازعة الدول الغربية الأخرى لها لاستولت على كامل إفريقيا، ولا يتردّد الرحال في دعوة الشعوب المستعمرة إلى: "**أن تقوم متحدة بنهضات عارمة وثورات كاسحة تقضي عليهما القضاء المبرم.**" (الرحلة، ص. 52)

2. القضايا القومية في الرحلة الجزائرية المعاصرة:

من خلال قراءة نصوص الرحلة الجزائرية نلمح بوضوح اعتزاز الرحالين بعروبتهم وقوميتهم، ولذلك أعربوا عن كثير من الاهتمام بما يجري في بلدان عربية غير الجزائر، فتحدثوا عن أفعال المحتل الإيطالي في ليبيا، وحلّلوا

مظاهر حضارية وثقافية تخص البلدان العربية كتحليل الغسيري لمظاهر التدين في مصر، وأسباب التطور في المملكة العربية السعودية، واعتناء باعزيز بتصوير الحياة في المدن والقرى العربية التي مر بها، وشاهدها في لبنان، وسورية، وفلسطين، والسعودية، واهتم الرحال أحمد منور[14] بالقطر الليبي الشقيق فعرّف بالبلد وبأهله.

لم يتوان الغسيري وهو في ليبيا عن تخصيص جزء من رحلته للتفصيل في تاريخ ليبيا المحتلة على يد الإيطاليين، ثم الإنجليز، الذين سمى مرحلتهم بشبه الاستقلال، وشرهم أقل درجة من شر الإيطاليين، وكانت فرصة للرحالة كي يحلل ظاهرة المحتل الأوربي، الذي كان يعمّر، ويشيد القصور، والبنايات ظنا منه الخلود في الأوطان التي احتلها قهرا، وأقام سؤددا له فيها على أنقاض شعوب ضعيفة، عاجزة، بدل السعي في تحقيق العدالة، والسلام على الأرض، وكان على الظلم يوما أن يتبدد، بجهاد أحرار ليبيا، وتسليط الله تعالى الحلفاء الذين: "**أبت مصالحهم إلا طرد إيطاليا المنهزمة مذمومة مدحورة من ليبيا بأقسامها الثلاثة وعاد إلى البلاد أهلها** [الأسرة السنوسية الحاكمة] –**وإنْ مع الإنجليز–إذ الشر درجات**" (الرحلة، البصائر، ع. 250)

وقد استرجع الكاتب أيام الاحتلال الإيطالي للبلاد، ومنجزاته العمرانية في المكان، ومعاملاته غير الإنسانية في المقابل لأهله قائلا: "**وكأن هؤلاء الإيطاليين كانوا يؤمنون بخلودهم في هذه الأرض، وكأن ما بذلوه كان يوحى من ضمائرهم التي تستحثهم إلى استرجاع سيادة روما على سواحل الأبيض المتوسط جميعها.. فهل استعادوا ملكها؟ إنهم هدموا وتهدم كل ما ملكوا ظلما وعدوانا في العصر الحاضر**" (الرحلة، البصائر، ع. 250)

وقد علّل الغسيري بروح تنبي عن إحساس بالتسامح الديني والإنسانية، الحقد الذي يكنّه الليبيون للإيطاليين من أنه ليس بسبب مسيحيتهم، بل بسبب امتلاكهم لأرض ليبيا غصبا، إذ: "**جثموا فوق صدر شعب مسالم، ضيعوه، وحرموا منه الإنسانية البناءة زمنا ليس بالقصير.**" (الرحلة، البصائر، ع. 250)

أما محمد الصالح رمضان، فقد آثر أن يسترجع تاريخ إيطاليا بعد مروره على الريفيرا ومدينة جنوة، مشيرا في الأول بحس موضوعي منصف إلى أن المنطقة أنجبت مكتشف القارة الأمريكية كريستوف كولومبس، إلا أنه يسرد أحداث قضاء القرطاجيين بقيادة حنبعل على الإمبراطورية الرومانية، وهي التي أراد موسوليني استرجاع عز روما بالسيطرة على البحر الأبيض المتوسط والتوسع في إفريقيا، لكنه لقي حتفه بعد حروب كثيرة في إيطاليا، وانتهى أمره بقتله على يد مواطنيه عام 1945: "**وبذلك** –قال محمد الصالح رمضان– **انتهى الحكم الديكتاتوري الفاشستي الذي كوّنه موسوليني وانتهت محاولته إعادة مجد روما، واستثارة النعرة القومية والعصبية الدينية، وكما انتهت الفاشستية، انتهت بعد ذلك النازية، ثم ما شابهها من نظم الحكم العسكرية الديكتاتورية في إسبانيا وفي الأرجنتين والشيلي واليابان، وسيلحقها نظام سالسبوري العنصري في جنوب إفريقيا، وعصابة الصهاينة في فلسطين، والعاقبة بعد ذلك للإمبرياليين.**" (الرحلة، ص. 62)

وعندما زار باعزيز عمر إيطاليا أثارت فيه مشاهداته ذكرى أحداث تاريخية تعود إلى عهد الإمبراطورية الرومانية، ثم حكم موسيليني الديكتاتوري، وهو لا يختلف مع الغسيري في تجريم أعمال هذا الحاكم وغيره في مستعمراتهم، وإرجاع زوال حكمهم لظلمهم ولنهضة الأمم في القرن العشرين نهضة فكرية وعلمية، يقول الرحال في ذلك: "**إن من سوء حظ موسولوني ومن كان على شاكلته من المتعاظمين الدكتاتوريين أن يحاولوا بعث إمبراطوريات قامت على جماجم الموتى في القرن العشرين الذي زعزع ما تبقى من الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة وأخذ يدُكّ عروشها واحدة بعد أخرى.. ولا يغنيهم فتيلا أن ينتسبوا إلى مسيحية أو أي رسالة سماوية أخرى ظاهرا ما داموا مخالفين لتعاليمها أو مسخرين لها ولممثليها الروحيين في خدمة أغراضهم وتأييد سلطانهم الجائر.**" الرحلة ص. 36– 37,

ومثل سابقيه من الرحالين تذكّر أحمد منور الفترة الحالكة التي عاشتها ليبيا خلال الاحتلال الإيطالي للبلاد، والجرائم المرتكبة في حق أهلها، وذلك في معرض حديثه عن يوم الحداد المقام كل سنة في اليوم السادس والعشرين أكتوبر، الذي يسمى في ليبيا شهر تمور، ووصفه لمظاهر الحداد البارزة في الشوارع، وعلى وجوه الليبيين، ولباسهم، وعلى أنشطة الإذاعة والتلفزيون، وفي وصف المدينة ذلك اليوم يقول: "**في صبيحة يوم 26 راحت المدينة تستفيق شيئا فشيئا دون جلبة ولا ضجيج كانت الشوارع شبه خالية إلا من أفراد قلائل كانوا يسيرون على مهل، وكانت الساحة الخضراء تتوشح بلافتات سوداء كتبت عليها عبارات مؤثرة تذكّر بما ارتكبته الفاشية من جرائم ومجازر في حق الشعب الليبي، وبما عاناه الآباء والأجداد من تعسف المستعمر وجوره، وكان المتحف القومي ببنائه الضخم يتسربل في أردية الحداد، ويغرق في صمته كأنه أبو الهول شاردا، يستعيد ذكريات الماضي.**" (الرحلة، جريدة العرب، ع. 6)

وفي مصر لاحظ الغسيري بوادر نهضة سياسية سعت إليها نخبة من رجال الحكم الثوريين، أهم مبادئها القضاء على الأرستقراطية في العقول، ودعوة الشباب إلى النهوض بالذات، وإخراج النساء من حياة الإسراف والانخداع بزخرف التمدن الخادع، وتنشيط التعليم والدعوة، وليس هذا يسيرا كما علّق الغسيري، لأن المصريين كانوا وقتذاك: "**ما يزالون كسالى يغطون في نومهم العميق وما يزالون صرعى الماضي اللاهي الماضي الساحر، الماضي الفاضح... ليس من السهل على حكومة الجيش أن ترفعهم من الأرض إلى السماء في أمد وجيز.**" (الرحلة، البصائر، ع. 253)

وعلى الرغم من ذلك كانت مصر أحسن حالا بكثير من الجزائر لوفرة معاهد العلم، والجامعات، والمساجد، والكليات الدينية، والمنجزات العسكرية، والهيئات الاجتماعية، والرياضية، والكشفية، وغيرها من المرافق والمواطن المصري يتمتع بثقافة عالية، وعناية بالدين، يظهر في انتشار المساجد، والمصليات في العيادات الطبية، والصيدليات، والمخابر، والمستشفيات، والمصانع، والمدارس، والجامعات، وحتى في محطات السكك الحديدية، التي يجد فيها المسافر يوم الجمعة مسجدا يخطب فيه الإمام، وتؤدى فيه الصلاة، كما أن الإمام فيه، أو في غيره من المساجد ليس منَصّبا مخصوصا ليوم الجمعة، بل هو من خيرة علماء البلاد وخريجي الجامعات.

وفي المملكة العربية السعودية سُعد الغسيري بمظاهر النهضة، والرقي التي أصبح ينعم بها المواطن السعودي في المدينة وفي البادية، حتى أصبح كما قال الرحال: "**البدو في فلواتهم مقبلين على التعلم، وأضحى الناس يترقبون عهدا جديدا للوثوب إلى القمة... وكان على الحكومة الحجازية أن تضرب مثلا للعالم الإسلامي في تربية النساء، وأن تكون لها مدارس لتعليم المرأة شؤون دينها من ابتدائية إلى عالية...**" (الرحلة، البصائر، ع. 267) وهذا الخطاب يحمل رسالة إلى الشعب الجزائري حتى يقتنع بأهمية تعليم الفتاة الجزائرية دينها ولغتها.

وفي معرض وصفه لشخصيات بارزة لقيها في المشرق، كثيرا ما أطلق الغسيري ألفاظا وتعابير توحي بميله إلى العروبة والعربية، ولذلك وصف ولي عهد الملك عبد العزيز، قائلا: "**الأمير العربي الماجد الأمير سعود آنئذ والملك العربي المحبوب اليوم**" (الرحلة، البصائر، ع. 257)، وفي موضع آخر مدحه مع إخوته بالتواضع والكرم، فضلا عن حب العربية قائلا: "**فما كان سعود وإخوته إلا كأفراد من المؤمنين العاديين... هكذا كان الأمير سعود في كل مرة نجتمع به.. كان مسلما كاملا في أخلاقه وعربيا صادقا في عروبته، ومصلحا اجتماعيا في كلماته، وإنسانا كاملا في أغراضه وغاياته**"الرحلة، ع, 260، والحكم ذاته أصدره عن الشيخ فارس الخوري من سوريا: "**رجل العروبة السياسي الخطير.**" (الرحلة، البصائر، ع. 274)

ويُظهر باعزيز بن عمر في رحلته الحجازية ارتياحه لحال التعريب في الجزائر بعد الاستقلال إذ تابع في الطائرة: "**عبارات الترحيب التقليدي والنشرة الجوية وأحوال الطقس وما يتصل بالطيران طلوعا وهبوطا وعلوا وانخفاضا باللغة العربية وكانت المذيعة تنطلق بالعربية انطلاقا لا يشوبه تلعثم أو رطانة ولا**

غرابة" (الرحلة ص. 32)، وعندما وجد باعزيز بن عمر رفاقة في الطائرة يتأسفون على جهلهم للغة العربية أوصاهم بألا يهملوا تعليم أبنائهم إياها إضافة إلى تعليمهم اللغات الحية والعصرية لهدف: "**لتبادل المصالح وإقامة روابط التعارف والتقارب بين الأفراد والجماعات المنتمين إلى أمم وشعوب مختلفة.**" (الرحلة، ص. 38)، وعدّ الرحال جهل رفاقه للغته من الأمور التي تدعو للاستغراب، وهو ناجم عن السياسة الاستعمارية التي عملت على تجريد الشعوب المستغلة مقوماتها ومن بينها اللغة، غير أن هذه الشعوب استطاعت الاستفادة من لغة المحتل لتستخدمها أداة للاتصال بالإخوان غير العرب من المسلمين، وتبادل الآراء فيما بينهم، ويتساءل باعزيز بن عمر في عهد الاستقلال عمّا إذا سيفكر المسلمون في المسارعة بنشر لغة الإسلام فيما بينهم، لفهمه وتقوية روابطهم وعلاقاتهم.(الرحلة ص. 40)

أما أحمد منور، فقد عرّف قرّاء رحلته إلى الجماهيرية الليبية بالمنظر العام الملفت للانتباه خلال التجوال في المدينة الطرابلسية، فقال: "**الزائر لليبيا لاسيّما إذا كان من بلدان المغرب العربي الأخرى، تصيبه الدهشة من خلو المحيط خلوا كاملا من الحرف اللاتيني، فأسماء الشوارع وأسماء المحلات، وعناوين المؤسسات وكل ما تقع عليه العين أو تسمعه الأذن مكتوب بالحرف العربي، أو منطوق باللغة العربية**" (الرحلة، جريدة العرب، ع. 6)

وضمن موضوع العروبة والإحساس بالانتماء القومي لدى الرحالين، حدّثنا أحمد منور عن تمسّك الشعب الليبي بقوميته، وعروبته، رغم ثقافته العالية، وإتقان العديد من أفراده اللغات الأجنبية: "**.. لقد قابلت شخصيا شبانا ليبيين يتقنون العديد من اللغات، ودرسوا في أشهر الجامعات الغربية، وحصلوا على أعلى الشهادات، ولكن يستحيل عليك أن تسمعهم يرطنون بتلك اللغات، أو يتشدّقون بها في المجالس، أو يتباهون بها**" (الرحلة، جريدة العرب، ع. 6) وقد استغرق الحديث عن العروبة، والقومية صفحة كاملة، خصت القسم الأول من الرحلة، وأنهاه الكاتب بقوله: "**هذه خواطر قد تكون مشوشة، وقد تكون غير ناضجة ولا دقيقة ولا مكتملة، ولكنها بالتأكيد صادقة ونابعة من مشاعر لمحبة والتقدير لليبيا العربية وشعبها المضياف.**" (الرحلة، جريدة العرب، ع. 6)

ومثلما عبّر الغسيري عن حبه للعربية، كرّس استحسان قيمة أخلاقية قديمة اشتهر بها العرب منذ العصر الجاهلي، وهي الكرم، وكثرة الضيوف، فقال عن أحد الطرابلسيين المقيمين بجدة، وكان صديقا لمرافقه في الحج الشيخ محمد البشير لإبراهيمي أثناء سنوات هجرته إلى المدينة المنورة، وهو الشيخ حسونة البسطي: "**وكأنه أخذت نسبته**[البسطي] **لا من بلده، ولكن من البساطة والتبسيط في كل شيء، فهو غني بالكتب جمعها مدة حياته ثم جلّدها ووقفها هي ودارَه التي يسكنها على مدرسة بجدة، وهو فقير لا يملك فلسا، ولا تدري كيف يعيش ولكنه مضياف متلاف غير مكساب طبعا، ومع ذلك لا يخلو منزله من ضيوف يطبخ لهم هو بنفسه لأنه الساكن الوحيد بالمنزل.**"(الرحلة، البصائر، ع.266)

ويتوقف باعزيز عمر مطولا في الجزيرة العربية، فيفصل في ذكر تاريخ مكة، وأهم مواقعها المقدسة، ويعرّج على التنبيه إلى عادات المكيين وتقاليدهم، مستعينا بأحد المطوفين، وكتاب مرآة الحرمين لصاحبه لواء إبراهيم رفعت باشا، ومن هذه العادات الكرم الفياض الذي يدل عليه: "**تقديم الشاي في كل وقت تحية للقادم عليهم، وإقامة المآدب الفاخرة**" (الرحلة، ص. 138)

والقيمة ذاتها نسبها أحمد منور لأهل ليبيا، عندما ذكر لقاءه بأحد الطرابلسيين، في محل تناول فيه الرحالة فطور الصباح مع رفيقه في الرحلة، وكان هذا الرجل كريما جدا، أظهر استعداده لاستقبال الكاتب وصاحبه في بيته، وتعريفهما بمدينة طرابلس وضواحيها، وقد وصل كرم الطرابلسي إلى حدّ الشجار مع مبعوث مضيف الرحالة الرسمي، وتنزاع الرجلين على دفع فاتورة الفطور، ويقول الرحالة عنه في حديثه

هذا: "**أثناء مغادرتنا ليبيا، رأينا أنا وصاحبي في الرحلة، أنه من المروءة أن نتصل بصاحبنا تلفونيا، وأن نعتذر له مرة أخرى لأننا لم نتمكن من تلبية دعوته.. فأظهر لنا أسفه الشديد، ولكنه أكّد لنا أن دعوته مازالت مفتوحة.. وأنه يرحب بنا في أي وقت تسنح لنا الفرصة فيه بزيارة ليبيا مستقبلا، فوعدناه بذلك، وودعناه بالشكر والتقدير الكبير.**" (الرحلة، جريدة العرب، ع.6)

وأكّد أحمد منور صفة الكرم في شعب ليبيا عند مرحلة الإياب إلى الجزائر، حيث شهد حادثة ملفتة للانتباه قام فيها أحد الليبيين في مطار طرابلس، بتوزيع مشروبات على الجالسين في أحد أبهاء المطار، وهو ما أعجب الرحالة وجعله يعلّق في آخر حديثه قائلا: "**كنت أظن أن أخلاق الغرب قد غلبت علينا فأنستنا طبعنا الأصيل في الكرم والأريحية، وفي غيرها من الخصال الكريمة، لكن يبدو أن الاستثناء الوحيد يوجد الآن في ليبيا، فقد غلب الطبع في أهلها كل أنواع التطبع**" (الرحلة، جريدة العرب،ع. 6)

واستشهد الغسيري في عدة مواقف من رحلته بالشعر العربي، وأثبت تأثرّه أكثر بالشاعرين المتنبي وأحمد شوقي، كما لم يخف محمد الصالح رمضان إعجابه بالشعر العربي القديم، والحديث، وافتخاره بعروبته حيث استشهد بشعر عنترة بن شداد، وشعر أحمد شوقي، وعلي محمود طه، والشاعر القروي، وابن ونان المغربي، وابن الفارض، ولقّب عنترة برمز البطولة والنخوة العربية، وكذلك استشهد باعزيز بن عمر بأبيات من الشعر العربي القديم والحديث مثل شعر البحتري، وأحمد شوقي، وخليل مطران، والشاعر القروي، وإيليا أبي ماضي.

وتناول الغسيري القضايا السياسية القومية، وانتقد العرب، بسبب تشتت جهود وحدتهم، وتبعيتهم الكاملة للغرب، وتأخرهم في ميادين الصناعة والمخترعات، وبالتالي عدم اعتمادهم على الذات: "**فها نحن نطير ولكن لا نحن صنع الطيران، وها نحن نسير ولكن لا نحن صنع السيارة، ولا الدراجة، وها نحن نريد أن نحمي فلسطين ولكن بسلاح لا نصنعه، ونهاجم من يهاجمنا برا وبحرا، ولكن بدون بحرية حربية ولا سلاح قوي فعال، ونريد أن نتحد ولكن مصالح الغير في بلادنا لا تدعنا نتحد، أو نتوحد فإلى الله المشتكى وإليه المرجع، ومنه نسأل البعث والحياة سريعا وعلى نحو جديد.**"(الرحلة، البصائر، ع. 273)

وقد كان الغسيري شديد الفطنة إلى ما يصيب الأمة العربية والإسلامية، وعرض ما يراه بديلا نافعا، فقال: "**إن الذي يجب أن يكون في البلاد العربية الإسلامية هو بعث أخوة حقيقية من نوع آخر، من نوع الأخوة التي حققها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في العرب يوم شاء الله أن يعز بالعرب المسلمين الإنسان ويقرب الأرض من السماء ويديل للخير على الشر ويمحو الفوارق الجنسية والإقليمية. فما هي في العالم إلا عائلة واحدة وأمة واحدة، أفضل أفرادها أتقاهم وأقربهم إلى الله أنفعهم لعياله، وهل يبقى مكان بعد ذلك للشيطان!....**" (الرحلة، البصائر، ع. 273)

وليس هذا البديل بعيد التحقق، بل إن الغسيري كان وقتذاك متفائلا بنشوء أخوّة –مثلما أخبر– أنها قد: "**تنمو سريعا من جراء الأحداث النازلة بالعالم الإسلامي، وقد تكون محنة فلسطين من أعظم أسباب يقظة العرب والمسلمين، وقد تكون أعظم باعث لهم إلى أن يقتلوا في نفوسهم الأنانية، وحب الذات وترك الخلافات المذهبية والحزبية والقبلية وأن يكون أخيارهم دائما عونا للعامل المخلص منه سواء أكان في الميدان العسكري أو في الميدان الديني.**" (الرحلة، البصائر، ع. 271)

ويتناول باعزيز بن عمر هو الآخر قضية فلسطين، عند زيارته لها، حيث عرّض بوعد بلفور المشؤوم الذي منح: "**قوما آخرين من الصهاينة ومشردي الآفاق ما ليس لهم، وما أروع وأصدق ما قاله في الموضوع إيليا أبو ماضي في قصيدته الغراء فلسطين وإلى القارئ أبياتا منها ومطلعها:**

ديار السلام و أرض الـــهنا يشق على العرب أن تحزنا
فخطب فلسطين خطب العلا و ما كان رزء العلى هينا
أأرض الخيـــال و آياته وذات الخلال و ذات السنا"

(الرحلة ص. 56)

3. قضايا دينية وسياسية وإنسانية:

استنجد الغسيري وهو بالحجاز بالله تعالى ودعاه دعاء خالصا بأن يغيّر من حال الأمة الإسلامية، فقال: "**يـــا رب محمد! رفقا بأمة محمد، لقد عَدَت عليها العوادي وجار عليها الزمان، وزلزلها الحدثان، فما هي في كثير من الأوطان إلا قطعان، استهدفتها حتى الذئاب والثعالب والضباع، ذلت في إفريقية، وتفرقت شيعا في آسيا، وتفككـــت أوصـــالها وجنحت للكفر في غير ما بلاد في أوروبا، وتقتل فيهم الأنانية وحب الذات.. اللهم إنا كرهنا حاضرنا فجمّل بفضـــلك مستقبلنا، مللنا الفرقة وسئمنا النزاع وكفرنا بالطاغوت، فوحد بين صفوفنا واقتل الغرض والهوى في نفوسنا، واكتب لنا طريق الخلاص والتحرر إنّك على كل شيء قدير.**" (الرحلة ع. 273)

وأجرى الغسيري مقارنة بين تضحية إبراهيم عليه السلام بابنه إسماعيل عليه السلام، وتضحيات رجال الـــدين والمخلصين في عهده بالبلاد العربية، وقد عبّر الرحال في خطابه عن أمنياته تجاه الإنسانية جمعاء، وتجاه إخوته فـــي الدين والعرق: "وما **أظن أن ما يراد منّا نحن الآخرين – في ميدان التضحية – يقل عما أريد من إبراهيم وإســـماعيل عليهما السلام، إن الإنسانية اليوم تتعذب وتختنق تحت أنفاسها، وتنتظر الحتف على أيدي حفنة مـــن رجـــال المـــال والسياسة في الشرق أو في الغرب، فهل يوجد في هؤلاء من يضحي ويتنحى عن أغراضه وأهوائه ومطامعه؟ وهـــل يوجد في رجال الأديان كثيرون ممن يضحي بأقل شيء: أي بوظيفة ليقول كلمة الحـــق ويهـــاجم الطغيـــان ويقـــاوم الشيطان، ويبارك الدعوة إلى السلام؟ وهل في العلماء أحرار يخترعون ما يريدون وتريد المنفعة لا كما يـــراد مـــنهم كعبيد للشيطان؟ وهل في الشعوب أقوام لا يعملون إلا بوحي من ضمير طاهر لا يهوى إلا إسعاد الإنسان، ولا يعمل إلا لفائدة إخوته وإن سكنوا شعاب آسيا، ومجاهل إفريقية وكانوا ملونين؟**" (الرحلة، ع. 273)

وفي متابعة الغسيري لسلوكات الحجاج المسلمين يعرّض بما شاهده من تفريط الحجاج في هيآتهم ونظافتهم أيـــام المواسم وبعد الطواف، كما ينتقد عادة تحمل الحجاج ما لا طاقة لهم به في شراء الهدايا لأهاليهم، وبخلهم على أنفســـهم وعلى الفقراء في الحجاز، وفي الأخير تساءل الرحال عن سبب كثرة الشيوخ في الحج وندرة الشباب فيـــه، وهـــو مـــا أرجعه إلى غفلة الشباب، واغترارهم بالحضارة الغربية المادية والزائفة فقال: **إن حجاجنـــا غالبـــا شـــيوخ كـــالأتراك والإيرانيين حجوا ليغسلوا الذنوب ولم يحج منهم الشباب لأنهم لا يذنبون ولا تعوزهم الروح الدينية! وكـــأن الغـــرب علّمهم كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي! ولذلك يقل حاجهم وويل للشباب من هذا الغرب، وويـــل للروحانيـــات مـــن ماديات هذا الغرب، وويل للغرب من الرب، يوم يأخذه أخذ عزيز مقتدر!**" (الرحلة، ع. 273)

وهذا ما ركّز عليه باعزيز بن عمر كذلك عند وصفه لسلوكات الحجاج في المدينة ومكة، ومنها انشغالهم عـــن العبادة بشراء الهدايا لذويهم، وقضاء أوقات طويلة في التسوق، والحديث عما ينبغي شراؤه، حتى أدى بهم ذلـــك إلـــى التقتير في صرف أموالهم على ضروريات الإقامة والتنقل وتوفير المال لشراء الهدايا، كما انتقد الكاتب ما يحدث مـــن زحام شديد وسلوكات سيئة من الحجاج كالتي شاهدها داخل المسجد النبوي: "**فهذا راقد وهذا يأكل ويشرب وذاك يهرّج أمام جمع من أصحابه.**" (الرحلة، ص. 86)

ومع كل هذه الانتقادات لا يتوانى باعزيز عن مدح كل المنجزات التي حققتها المملكة السعودية في سبيل خدمـــة الإسلام والمسلمين، فقال: "**إن عناية الحكومة السعودية بالحرمين وما شاهدناه لها من مشاريع الإصـــلاح والتمـــدين الجارية في عهد جلالة الملك "فيصل" لمما يسجله لها التاريخ بمداد الفخر كمنقبة من مناقب السعوديين فيمـــا قـــدموا**

ويقدمونه من خدمات في إعلاء مجد الإسلام وإظهار بقاعه المقدسة في مظهر يتفق وعظمته وحضارته." (الرحلة، ص. 130)

ويطلعنا محمد الصالح رمضان على معارف جغرافية، وأخبار تاريخية كثيرة حول دول أوروبا التي شملها خط سيره في الذهاب والإياب، وقد ركّز كثيرا على مظاهر الحضارة والمدنية، ووجّه خطابا سياسيا يعرّف برأيه في نظام الحكم الأسلم، ضمن مدحه لدولة النمسا وسياستها، حيث شهد الرحال بها ما لم يجده في وطنه ولا في دول أخرى، من سعادة أهل البلد وتنعمهم بالرخاء والعدالة الاجتماعية، وعلل ذلك بأن النمسا: "**أخذت بأحسن ما في الاشتراكية من نظم وأعمال اجتماعية إنسانية، وعملت بخير ما في الديموقراطية من أسس دستورية وحريات شخصية في التفكير والتدبير والتسيير، ولم تلتزم بالحزب الواحد كما في الاشتراكية الشرقية المتطرفة، ولا بفوضى الديموقراطية الغربية المنحرفة، وصدق من قال حب التناهي شطط خير الأمور وسط.**" (الرحلة، ص. 79)

ومن أهم دعوات محمد الصالح رمضان الإنسانية رفقة جميع شباب العالم وطلابه: "**الدعوة إلى نزع السلاح الذري وترك التجارب النووية، وشجب عدوان الأقوياء على الضعفاء وتصفية الاستعمار والتنديد به وبالإمبريالية.**" (الرحلة، ص. 115)

ويبدو محمد الصالح رمضان متفتحا على الآخر، متسامحا معه، فهو يرى في المهرجان العالمي عيدا للشباب، وتجسيدا لمبادئ المحتفلين وهي السلام والصداقة بين الشعوب، اللذان يتحققان عن طريق الحوار، وفي سبيل:"**حل القضايا العالمية والوطنية.. ومحاربة الاستعمار والهيمنة على الشعوب، والقضاء على الاستبداد والعنصرية، والظلم، والاضطهاد، وتقرير حرية الشعوب وتقرير مصيرها.**" (الرحلة، ص. 116)

4. صورة الأنا والآخر في رحلات أحمد منور إلى أوربا:

حملت رحلات أحمد منور إلى أوربا عنوان عاما هو: أسفار وذكريات، وعنوانين خاصين هما: "فرنسا"، و"رحلة إلى بلاد الإنجليز" وكانت الرحلتان في عطلة الصيف لسنة 1976، كان هدفها السياحة والتجوال واكتشاف البلدين.

ويمكن التركيز في هذه الدراسة على مواقف الدهشة والاستغراب، وحالات المقارنة بين الأنا والآخر، وهي التي تعرّف بحق عن مظاهر الهوية الجزائرية المختلفة عن الهوية الغربية في كثير من الحالات، وفي الرحلة إلى فرنسا حمل منور أحاسيس متضاربة فيها كره للمحتل الفرنسي، وإعجاب بما سمع عنها من والده أو مما قرأه، أو تابعه في التلفزيون والسينما، إذ تنعم البلاد برفاهية وتقدّم وحضارة.

وقد سجّل الرحال الكثير من المشاهد المثيرة في فرنسا، كالتي وجدها في المطار من: مظهر الأناقة والنظافة والنظام، وفخامة المحلات، وجمال المعروضات وتنوعها وكثرتها، المصاعد الكهربائية والسلالم الميكانيكية، البسط المتحركة، لوحات الإرشادات الضخمة والمضيئة، الأبواب التي تفتح آليا دون علم المسافرين. (الرحلة، السلام، ع. 1304)، ويمكن تبرير هذا الإعجاب كون هذه الوسائل كانت جديدة على الرحالة لكنها الآن مما تعوّد الجزائريون عليها في مطاراتهم.

ويواصل منور تسجيل انطباعاته فيعرف قراءه بنظام المواصلات المحكم، ومن أهمها المترو، وشبكة قطارات الضواحي، والحافلات الموصلة إلى جميع نواحي باريس، وهي وسائل توفر للآلاف يوميا التنقل بكل سهولة وبسرعة توفر على المتنقلين الكثير من الوقت.

ومما أبهر الرحالة ونال إعجابه في محطات المترو الكم الوافر من الإعلانات والملصقات التي تعلن عن السلع والمصنوعات: "**تشعر الراكب كأنه يتنقل داخل محلات مكتظة بالسلع والمنتجات ولو خلت جدران المحطات من تلك الملصقات الإشهارية لتحولت إلى سراديب قبيحة وكئيبة**" (الرحلة، السلام، ع. 1301)

تجوّل الرحال في باريس، وتعرّف على ما فيها من حدائق ومحلات ومرافق منها: حديقة وهضبة مونمارتر التي يتجمع فيها الباعة الإفريقيون في سلالم الحديقة والرسامون في الهضبة، كما ولج كنيسة القلب المقدّس، وهي أول كنيسة يدخلها منور، وقد وصفها بقوله: "**كانت في غاية الاتساع والفخامة وتحتوي على تماثيل ولوحات فنية ضخمة.. وتحتوي الكنيسة على دكاكين لبيع كل أنواع التحف والهدايا مثل الصلبان، والأيقونات، والحلي، والبطاقات البريدية، والأقلام**" (الرحلة، السلام، ع. 1315)، وزار في اليوم ذاته برج إيفل، ومسجد باريس الذي كان: "**خاليا من المصلين ومن السياح على السواء، وكان معتما، ويغلب عليه طابع القدم في كل شيء..**" (الرحلة، السلام، ع.1321)

وجاءت رحلة منور إلى إنجلترا بمفاجآت جديدة، منها العبّارة التي تقطع بركاب قطار فرنسا من ميناء لوهافر نهر المانش للوصول إلى ميناء دوفر الإنجليزي، وهي الرحلة التي شهد فيها الرحال حسن النظام، والسرعة في إجراءات الصعود والنزول مثلما نعم بما في العبّارة من مرافق من: "**مطاعم، ومقاهي، ودكاكين، وصرافة نقود، وكل ما يحتاج إليه المسافر من الضروريات أو الكماليات**" (الرحلة، السلام، ع. 1327)

وككل الرحالين العرب لا يفوّت ملاحظة احترام الأوربيين للوقت فالقطارات تنطلق في أوقاتها، وإجراءات المراقبة سريعة، وكما قال الرحال: "**الوقت عند الأوربي هو المال والمحافظة عليه محافظة على المال، والإحساس به إحساس بنبض العصر، ودفع لعجلة التقدّم.**" (الرحلة، السلام، ع. 1327)

وفي إنجلترا قام منور بزيارات سريعة في مدينة لندن، عبر ميترو المدينة الذي وجده الرحال مختلفا عن مترو باريس في عدة جوانب عدّدها الرحال بدقة، كما زار حديقة هايد بارك، ويعلّق بقوله أن لندن بها أكثر من ثمانين حديقة، وزار كذلك قصر الملكة فكتوريا المشهور بهندسته البديعة، وبجنوده المميزين، والواقفين كالتماثيل عند مدخل القصر، ولعل من أهم الملاحظات التي سجلها منور في رحلته قضية التدين الواهي لدى الأوربيين فقد وجد منهم من لا يمتنع من شراء التماثيل الإفريقية الوثنية ويدخل بعد ذلك إلى الكنيسة، وقد أرجع منور هذا الضعف في الشعور الديني إلى هيمنة العقلية المادية: "**إلى درجة أصبحت فيها العبادة عندهم مجرد طقوس فارغة، يؤديها الواحد منهم بشكل آلي.**" (الرحلة، السلام، ع, 1339)

كما يلمس الرحال منور في الفرنسيين زيادة في العناية بالأكل، وبمواعيده، ودليله في ذلك كثرة محلات الطعام والمطاعم ، وتكرار مشاهد الأكل في الأفلام الفرنسية، ويلاحظ عدم مبالاة الأوربيين بالآخرين، وهو ما لا نجده في المجتمعات الشرقية، ولهذا لم يشعر الرحالة بأي حرج وهو يشعل شمعة في كنيسة القلب المقدس دون أن يكمل بقية الطقوس المسيحية، كما يكتشف انتشار ظاهرة التنشيط العمومي الذي يمارسه فنانون من مهرجين، ومغنين، وموسيقيين، مقابل قطع نقدية يقدمها المتفرجون من المارة والسياح لهم، وهذه المهنة تمارس بحرية في فرنسا وبتشجيع من السلطات، وهو ما يشير إلى حرية التعبير، والاهتمام بالفنون في فرنسا، ولا يتردد منور في اعتبار مقياس الحضارة وفرة دورات المياه ونظافتها في البلد، وهذا ما لا يجده الرحال في وطنه.

وفي إنجلترا يؤكّد منور على حرية التعبير التي تتوفر في إحدى حدائق لندن هايدبارك كورنر، التي يخطب فيها أي شخص بما يريد وله الحصانة ما دام في تلك الزاوية من الحديقة، وهي كما قال منور: "**بمثابة صمّام أمان في المجتمع، يستطيع كل شخص أن يتخلص عن طريقها من أي ضغط نفسي، ومن أي إحساس بالغبن، أو الظلم الاجتماعي.**" (الرحلة، السلام، ع. 1339)

ويلاحظ منور في لندن تنوع أجناس الناس، ووجود فئات كثيرة من الأمم المستعمرة، ورغم اندثار المستعمرات وزوال الاستعمار في القرن العشرين فقد رأى منور أن استعمارا جديدا حل في هذا الزمن: "**فالاستعمار الجديد لم يعد في حاجة إلى أرض يحتلها، أو علم يرفعه، أو جند يحرسون الثروات والاحتكارات.. فلدى الاستعمار الجديد قوة**

التكنولوجيا، والمال، والهيمنة الثقافية التي تؤدي إلى الهيمنة الاقتصادية، وبالتالي الحفاظ على الامتيازات السابقة في الفترة الاستعمارية."(الرحلة، السلام، ع. 1387)

ويختم منور ملاحظاته حول أوربا بظاهرة تواضع الحكام الأوربيين وبساطتهم، لمسه أثناء سيره بجانب بناية البرلمان، ومرور سيارتين تحمل إحداهما رئيس وزراء إنجلترا، ورئيس فرنسا، وكان شديد الاستغراب لما شاهده، وقد تعوّد أن يكون في البلدان العربية وبلدان العالم الثالث موكب الرؤساء العرب كبيرا تتوقف لأجله حركة السير، تتقدمهم الدراجات النارية، أو كما قال منور: "**تتعطل المدارس والمصانع، ويخرج التلاميذ يحملون الأعلام، والعمال يهتفون بحياة الزعيمين، ويقف المواطنون نصف يوم ينتظرون مرور الموكب، وتعم الأفراح، والليالي الملاح**" (الرحلة، السلام، ع. 1387)

ويذهب منور بعيدا في التساؤل عن مصير الإنسانية لو امتلك حكام العالم الثالث الأسلحة النووية التي يحتفظ بها الفرنسيون والبريطانيون، وهي إشارة إلى تخلف هذه الدول عن الاكتشاف والتصنيع، وتخلف وعيهم الإنساني على السواء.

وفي الأخير نستنتج أن الخطاب الرّحلي في الجزائر لم يشذ عن أي خطاب أدبي في اغتنائه بقضايا الهوية العربية الإسلامية للجزائريين، مثلما مثّل ولا يزال نموذجا متميزا في الوعي بالأنا، وتشريح الآخر من العرب والمسلمين ومن الغربيين.

الهوامش:

[1] الرحلة من فنون الأدب العريقة والقديمة التي أسهم العربي في تأليفها منذ القرن الثالث للهجرة، وقد بدأ في شكل كتب جغرافية وتاريخية مع أعلام هذين الاتجاهين كاليعقوبي والمسعودي وابن حوقل والمقدسي والإدريسي، وابن سعيد المغربي، وياقوت الحموي، ... وغيرهم وعرف أدب الرحلات ازدهارا في الكتابة واقترابا أكثر فأكثر من الطابع الأدبي مع الرحالين أبي بكر بن العربي، وابن جبير الأندلسي وابن بطوطة، ويختص أدب الرحلات في كونه يتقاطع مع جميع العلوم والمعارف، مثلما يستعير كتابها تقنيات الكتابة السردية، القديمة والحديثة وهو ما يجعل الرحلات في علاقة مع المقامة والحكاية، والرواية والقصة القصيرة. واستطاع عدد من الأدباء الجزائريين المشاركة في أدب الرحلة على مر العصور واشتهر من بينهم: أبو العباس المقري التلمساني صاحب نفح الطيب، والحسين الورثلاني، وابن حمادوش الجزائري، وفي العصر الحديث تواصل التأليف في الرحلة بالجزائر ومثلته على الخصوص النخبة المثقفة ثقافة عربية، كأعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهم الذين يسعى هذا البحث لاستقراء مضامين الهوية وتصوير الآخر في رحلاتهم.

[2] نشرت الرحلة في جريدة البصائر، السلسلة الثانية، في إحدى وعشرين حلقة: حلقتان معنونتان: "**مصر الشقيقة تحتفل بالكشافة الإسلامية**" نشرتا بتاريخ: 2، و12 محرم 1373هـ، 11، 25 سبتمبر 1953م، وبقية الحلقات معنونة بـ: "**عدت من الشرق**"، ونشرت بداية من تاريخ 5 ربيع الثاني 1373هـ، 11 ديسمبر 1953، وإلى غاية 24 شوال 1373هـ، 25 جوان 1954.

[3] باعزيز بن عمر، رحلتي إلى البقاع المقدسة، الجزائر، منشورات تالة، 2007.

[4] عثمان سعدي، وطني، جريدة البصائر، الجزائر، سلسلة 2، سنة:6، ع. 251، الصادر يوم 12 ربيع الثاني 1373هـ، الموافق لـ 17 ديسمبر 1953م.

[5] محمد علي دبوز، وقفة في دار الرافعي وعلى قبره، جريدة البصائر، الجزائر، سلسلة 2، سبع حلقات، من العدد 334 الصادر في 6 صفر 1375هـ الموافق لـ 23 سبتمبر 1955م إلى العدد 347 الصادر في 14 جمادى الأولى الموافق لـ 30 ديسمبر 1955م

[6] محمد الصالح رمضان، سوائح وارتسامات عابر سبيل، رحلة إلى مهرجان الشباب والطلاب العالمي في فرصوفيا 1955م، الجزائر، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، ط.1، 2004.

[7] أحمد منور، مذكرات عائد من الجماهيرية، جريدة العرب، لندن، ع.6، 21/ 22 نوفمبر 1991.
أسفار وذكريات في فرنسا جريدة السلام، ع. 1301/ 1307/ 1315/ 1321/ 1327/ 1339/ 1387من فيفري إلى ماي 1996.

[8] حميد لحمداني، النقد الروائي والإيديولوجيا، من سوسيولوجيا النص الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط.1، 1991، ص-ص. 23-25.

[9] ولد محمد المنصوري الغسيري بقرية غسيرة بالشرق الجزائري عام 1912م، تلقى تعليمه بالقرية، ثم بسكرة، فقسنطينة، في الجامع الأخضر لعبد الحميد بن باديس، وهي الفرصة التي قربته من الشيخ، وجعلته بعد ذلك عضوا فعالا في التعليم والسياسة، وعمل فترة فى تنشيط الكشافة، وبعد اندلاع الثورة التحريرية، انخرط الغسيري في صفوف جبهة التحرير، ثم عين ممثلا لها بدمشق عام 1955، تابع الغسيري عمله في السياسة، والدبلوماسية، فاشتغل بعد الاستقلال سفيرا للجزائر في دول عربية كثيرة، ولم يتوقف عن هذه الوظيفة حتى وفاته عام 1974، وقد شارك في إطار التأليف، بعدة مقالات نشرت في جريدة البصائر الثانية، وكانت في مجالات اللغة، والأدب، والدين، والتاريخ.

[10] من مواليد سنة 1914 بالقنطرة ولاية باتنة في الشرق الجزائري، فيها نشأ وتعلم مبادئ الإسلام واللغة العربية في المدرسة الحرة، وتعلم اللغة الفرنسية في المدرسة الرسمية، والتحق بدروس ابن باديس بالجامع الأخضر، عمل مدرسا ومشرفا على مدارس جمعية العلماء في الشرق والغرب، مثلما انضم إلى جبهة التحرير الوطني أثناء الثورة، وعمل في التعليم والشؤون الدينية، كما شارك في التأليف الأدبي فكتب مسرحيتين دينيتين "الناشئة المهاجرة" و"الخنساء"، وديوان شعر ألحان الفتوة، وكتاب "العقائد الإسلامية لابن باديس"، ... وغيرها من المؤلفات، توفي عام 2008

[11] هو عبد العزيز بعزي، مولود عام 1906 بقرية آث حماد بولاية تيزي وزو بالجزائر، تعلم مبادئ العربية وحفظ القرآن الكريم بمسقط رأسه، وعلى يد والده مدرس القرآن والفقه، درس في معهد ابن باديس بقسنطينة، بعدها عمل في التعليم والصحافة ، فاستطاع كتابة حوالي خمسمائة مقال منش في الشهاب والبصائر وهما جريدتا جمعية العلماء المسلمين، وله مسرحية تاريخية "الجزائر الثائرة"، وكتاب "رحلتي إلى البقاع المقدسة"، وكتاب "من ذكرياتي عن الإمامين الرئيسيين عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي"، توفي عام 1966.

[12] ولد محمد علي دبوز عام 1919م، في مدينة (بريان) بولاية غرداية الجزائرية، درس في بداية حياته في منطقته، وتعلم من شيوخها، كما التحق بمعهد الحياة بالقرارة، في الولاية ذاتها، وتابع تعليمه بعد ذلك في تونس عام 1941، ثم مصر، التي رحل إليها عام 1942، ودامت مدة إقامته حتى سنة 1948، استغلها للتعلم والسياحة، وكانت له رحلة أخرى إلى مصر عام 1955، وعند رجوعه إلى الجزائر، انكب على التأليف والتدريس بمعهده الأول "الحياة"، حتى وفاته سنة 1981، لمحمد علي دبوز إسهامات عديدة في مجال المقال، إذ نشرت له الكثير من المقالات الأدبية، والتاريخية، والاجتماعية، بجريدة البصائر، وهذا منذ الخمسينات، كما له مؤلفات منشورة، أهمها: كتاب "نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة"، ومؤلف "أعلام الإصلاح في الجزائر".

[13] من مواليد 1930 دوار ثازبنت، بتبسة، من مدن الشرق الجزائري، التحق في شبابه بمعهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة، ومنه تحصل على بعثة دراسية إلى قاهرة مصر، لمتابعة دراسته الجامعية، بكلية الآداب، وكان هذا عام 1952، فتحصل على الليسانس عام 1956، ورجع إلى الجزائر، وتحصل في جامعتها على شهادة الماجستير سنة 1979، ثم الدكتوراه من جامعة الجزائر سنة 1985، مارس عثمان سعدي أعمال السفارة، والدبلوماسية في دول عربية مختلفة، كالكويت، والعراق، وسوريا، كما شارك في السياسة الداخلية للبلاد، قبل الاستقلال وبعده، إأما نشاطات التأليف، فقد ركز سعدي على قضية التعريب، ومسيرة اللغة العربية في الجزائر، فألّف كتابين هامين، وهما: "قضية التعريب في الجزائر" و"عروبة الجزائر عبر التاريخ"، إضافة إلى مقالات كثيرة في الجرائد، والمجلات، حول التاريخ، والأدب، والسياسة.

[14] ولد أحمد منور سنة 1946 بجيجل، تابع دراسته في المراحل الأولى ببلدته، وأتم دراسة التدرج في جامعة الجزائر، ثم سافر إلى فرنسا، حيث تابع دراسة الأدب، بجامعة السربون، ومنها تحصّل على دبلوم الدراسات العليا، عاد إلى الجزائر وتحصل من جامعتها على الدكتوراه، وكان عنوان الدراسة "الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية"، ويزاول حاليا التعليم بقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، للكاتب مساهمات في الأدب، والقصة على الخصوص، منها نذكر مجموعتين قصصيتين "الصداع" الصادرة في 1980، و"لحن إفريقي" الصادرة عام 1986، وله دراسات أدبية مختلفة في الأدب الجزائري الحديث، والنقد، والترجمة، واعتنى على الخصوص بأعمال رضا حوحو، وصدر له مؤخرا كتاب "أدب الفرجة والنضال في الجزائر"، أنجز أحمد منور رحلات متعددة، منها ما كان نحو أوربا؛ إذ سافر للسياحة والتجوال، وقضاء عطلة الصيف بفرنسا وإنجلترا، وكان هذا سنة 1976، ومنها ما يمم شطر المشرق، فأتيحت لمنور الفرصة لزيارة ليبيا، ومصر، والكويت، وجزر القمر.

****

ببليوغرافيا البحث:

- **بن عمر، باعزيز:**

رحلتي إلى البقاع المقدسة، الجزائر، منشورات تالة، 2007.

- **دبوز، محمد علي:**

وقفة في دار الرافعي وعلى قبره، البصائر، الجزائر، السلسلة الثانية، ابتداء من العدد 334 الصادر في 6 صفر 1375 الموافق لـــ 23 سبتمبر1955م، وحتى العدد 347 الصادر في 14جمادى الأولى، الموافق لـــ 30 ديسمبر1955، مع غياب الرحلة، في بعض الأعداد المتخلّلة (سبع حلقات).

- **رمضان، محمد الصالح:**

سوائح وارتسامات عابر سبيل، رحلة إلى مهرجان الشباب والطلاب العالمي في فرصوفيا 1955م، الجزائر، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، ط.1، 2004.

- **الغسيري، محمد المنصوري:**

* مصر الشقيقة تحتفل بالكشافة الإسلامية الجزائرية، البصائر، الجزائر، السلسلة الثانية، 2، 12 محرم 1373هـــ الموافق لـــ 11، 25 سبتمبر 1953م (حلقتان).

* عدت من الشرق، البصائر، الجزائر، السلسلة الثانية، ابتداء من 5 ربيع الثاني 1373هـــ الموافق لـــ 11 ديسمبر 1953، وإلى غاية 24 شوال 1373هـــ، 25 جوان 1954 (تسع عشرة حلقة).

- **سعدي، عثمان:**

وطني، البصائر، الجزائر، السلسلة الثانية، ع. 251، الصادر يوم 12 ربيع الثاني 1373هـــ الموافق ليوم 17 ديسمبر1953م.

- **لحميداني، حميد:**

النقد الروائي والإيديولوجيا، من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط. 1، 1991.

- **منور، أحمد:**

* مذكرات عائد من الجماهيرية، جريدة العرب، لندن، ع.6، 21/ 22 نوفمبر 1991.

*أسفار وذكريات (مصر)، جريدة السلام، الجزائر، أربع حلقات، ع. 1277، 1283، 1289 ،1295، 13، 20، 27 شعبان و5 رمضان 1416هـــ- 04، 11، 18، 25 جانفي 1996م.

* أسفار وذكريات في فرنسا، جريدة السلام، الجزائر، سبع حلقات، ع. 1301/ 1307/ 1315/ 1321/ 1327/ 1339/ 1387من فيفري إلى ماي 1996.

*الكويت اليوم، جريدة القبس، الكويت، حلقتان، ع.3، 4، جوان 1996.